

## التصوف بين علم النفس الصوفي وعلم النفس الحديث "دراسة في فكر الدكتور عامر النجار الصوفي"

### مقدمة

إن التصوف من العلوم الشرعية الباطنية الذوقية الفردية التي أحدثت جدلاً كبيراً بين الباحثين لما له من سمات تجعله غير مفهوم منطقياً أو عقلياً في بعض مواطنه التي بها نوع من الشطحات أو التعبيرات التي قد يرفضها البعض ، مثل أصحاب المنهج العقلي ، وهذا لأن الذوق لديهم أداة غير منطقية أو غير عقلية ، ولذلك فهي أداة غير منهجية ، أما العقل لدى هؤلاء القوم فهو الوسيلة الوحيدة لمعرفة مضمون أي علم من العلوم ، فضلاً عن أن التصوف كعلم رוחي نفسي بعيد كل البعد عن ذلك المجال العقلي ، ودائرته المادية ، ولذلك كان من الضروري البحث عن أسلوب وعلم آخر يمكن به إدراك ماهية التصوف ، وحقيقته النفسية وحقيقة ما يمر به الصوفي السالك لطريق الحق من مواجهيد وأذواق وتجربة فردية خاصة .

ونتيجة لهذه الجدل بين أصحاب الاتجاه النظري العقلي ، وأصحاب الاتجاه الصوفي الباطني ظهر علم النفس الصوفي ، والذي بدأ منذ القرن الثالث الهجري ، والذي يعتبر من أخصب القرون الفكرية التي مرت على الأمة الإسلامية ؛ لما كان له من قدرة على تفهم طبيعة هذا العلم الفردي الذوقي ، وإمكانيته عن التعبير عن تلك التجربة بأقرب معنى لما يشعر به الصوفي ، وما يمر به في هذه التجربة .

ويناقش هذا البحث دور أهم المحللين الصوفية النفسانيين ، وأبرز جهودهم في ذلك العلم ومن هؤلاء العلماء المحللين الدكتور عامر النجار ، فهو من أشهر الفلاسفة الإسلاميين الصوفية الذين تناولوا هذا العلم النفسي الصوفي ، حيث أن الدكتور عامر قد اتخذ هذا المنهج النفسي متيقناً من أن هذا العلم يعتبر من قبيل منظومة المناهج التاريخية التي نحن في حاجة لها

في عصرنا الذي نجيا فيه ، ولعل هذا المنهج النفسي- في بدايته كان مجرد رصد لبعض الملاحظات التي تأخذ من أفراد معينة ، ثم تطور هذا العلم وأخذ شكلاً محدداً منذ صدور مؤلفات " فرويد " حين فرق فيها بين الشعور واللاشعور ثم تطور أكثر ، وأخذ معنى أوسع حين ارتبط ببعض النواحي الإنسانية مثل : الإبداع وأسبابه ودوافعه عند الإنسان ، فظهر علم النفس الإبداعي ، وهو الذي يضع الفروض النظرية البحتة تحت نظر الاختبار والتجربة ، أما علم النفس الصوفي والذي اهتم به الدكتور عامر هو الذي يتخذ من التصوف بمعناه الشامل وجميع محتوياته أداة لإصلاح الجانب النفسي- للفرد ، وكذلك الجانب النفسي- الاجتماعي

ولقد كتب في هذا المجال العديد من الكتابات والدراسات السابقة ومنها دراسة للدكتور سيد عبد الحميد مرسي ، وهي سلسلة تعبر عن دراسات نفسية إسلامية ، وتحتوي على بعض الكتب تحت مسميات الشخصية السوية ومحتواها تعريف بالشخصية السوية ، وعرض لبعض المدارس المختلفة التي تناولت طبيعة الأمراض النفسية ، وسبب نشأتها ، وأهم السمات التي تحدد الشخصية النفسية السوية ، وأيضاً كتاب باسم : الإيمان والصحة النفسية ومحتواه يتضمن : طبيعة العلاج النفسي في القرآن الكريم ، ونظرة القرآن للنفس الإنسانية ، ثم أثر الإيمان في علاج أمراض النفس الإنسانية ، وأهم النتائج التي يمكن أن تحصلها النفس من انتهاجها لمنهج الإيمان كعلاج لها ومن أهمها : السكينة والأمن والطمأنينة النفسية ، ومن تلك السلسلة كتاب باسم : ونفس وما سواها ويحتوي على معنى التوافق النفسي- ، وأهم أنواعه وأسبابه ، وأهم النتائج التي تترتب على هذا التوافق .

وكذلك من الدراسات السابقة في هذا المجال دراسة للدكتور حسن الشراقوي باسم : الطب النفسي النبوي وفيها يناقش الفرق بين الطب الوقائي والطب العلاجي ، والفرق بين مرضي القلوب ومرض الأبدان ، وأهم أفات النفس في النظرة الإسلامية ، وكيفية الوقاية منها من خلال الكتاب والسنة .

ولقد اتبعت في دراستي لهذا البحث المنهج التحليلي ، والمنهج المقارن ، حيث أن منهج التحليل يسمح بتحليل بعض المصطلحات والمعاني التي قد تسبب بعض الخلافات بين الطوائف كما أن المنهج المقارن يسمح لنا بعرض بعض الأفكار ومقارنتها بما يماثلها من أفكار ، وما يعارضها أيضاً ، مما يعطي مساحة للقارئ بأن يعتنق أي فكرة ولكن بعد توضيحها ، وزوال أي لبس فيها .

ولعلي وجدت في بحثي هذا بعضاً من المشكلات أو الأطروحات التي تمثلت في :

- من هو الدكتور عامر النجار ؟ وما هو فكره ؟  
- ما هي أهم المناهج التي تناولت التجربة الصوفية ؟ وكيف كان منظورها لتلك التجربة الصوفية ؟

- كيف نشأ علم النفس الصوفي في الدراسات الإسلامية ؟ وكيف كانت بدايته ؟

- كيف يفسر التصوف بين العلم النفسي الحديث وعلم النفس الصوفي ؟

- ما هي طبيعة الحالات الصوفية التي يتم دراستها من مختلف المناهج ؟

- ما هي الشخصية النفسية النموذجية الصوفية ؟

وسوف يجيب البحث عن تلك التساؤلات كل على حده

- أولاً : الدكتور عامر النجار ونشأته العقلية :

عامر ياسين محمد النجار ولد في عشرين يوليو من عام ألف وتسعمائة أربعة وأربعين (١٩٤٤ / ٧ / ٢٠) بحبي الأزهر بمدينة القاهرة ، نشأ في بيئة متوسطة عرفت بتدينها وحبها للعلم فقد كان والده الشيخ ياسين النجار من علماء الأزهر ، وعمه هو العلامة الشيخ ( محمد علي النجار ) المحقق اللغوي الكبير وعضو مجمع اللغة العربية الأسبق ، وكذا عمه الدكتور عبد الحليم النجار صاحب أبرز ترجمة لكتاب " بروكلمان " تاريخ الأدب العربي ، حيث ترجمه من الألمانية إلى العربية .

وكان عامر النجار منذ صغره محباً للقراءة ، ويعتبر أن أفضل ما ورثه عن والده مكتبة أدبية وإسلامية وتراثية نادرة تنهل علماً كثيراً ، وكان الدكتور عامر في مراحل الدراسة طالباً عادياً

لا يتميز عن أي طالب متوسط بشيء سوى أنه كان يقرأ في الأدب والفلسفة بنهم شديد وكثيراً ما كان يترك الكتب الدراسية ويتناول أحد الكتب الثقافية أو الفلسفية أو صوفية . ولم تظهر عليه علامات النبوغ في دائرة الفلسفة إلا حين اكتشفه العلامة الدكتور محمود قاسم عميد كلية دار العلوم الأسبق أثناء تدريسه لعلم المنطق ومناهج البحث بكلية آداب الإسكندرية حين وجهه للدراسات العليا بقسم الفلسفة الإسلامية بكلية دار العلوم من قسم الدراسات الفلسفية والاجتماعية بآداب الإسكندرية . ومنذ ذلك التاريخ بدأ رحلته الدراسية مع الدراسات العليا بكلية دار العلوم جامعة القاهرة ، حيث حصل على الماجستير عام ١٩٧٧ والدكتوراة عام ١٩٨١ ، وأخيراً يمكن القول أن الدكتور عامر النجار يعتبر الامتداد المعاصر للمدرسة المحمدية الشاذلية المعبرة عن التصوف المصري المعاصر .

- الخبرات العلمية للدكتور عامر :

- عمل أستاذ ورئيساً لقسم الفلسفة بكلية الآداب بسوهاج جامعة أسيوط
- عمل أستاذاً ورئيساً لقسم الدراسات الفلسفية والاجتماعية بكلية التربية بالسويس .
- عمل وكيلاً لكلية التربية بالسويس جامعة قناة السويس .
- عمل أستاذاً ورئيساً لقسم الدراسات الإسلامية بكلية تربية تعز اليمن .
- عمل أستاذاً للملل والنحل والمذاهب المعاصرة بقسم العقيدة والمذاهب المعاصرة بكلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض .
- يعمل الآن أستاذاً متفرغاً بقسم الفلسفة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالإسماعيلية جامعة قناة السويس .

- النشاط الثقافي والمؤتمرات :

- عضو اتحاد كتاب مصر - عضو رابطة الأدب الإسلامي العالمية بالرياض - عضو الهيئة العامة للإعجاز العلمي بالقرآن والسنة بمكة المكرمة - شارك في عديد من المؤتمرات العلمية العالمية في مصر والعالم العربي وأوروبا والولايات المتحدة الأمريكية .

### مؤلفاته :

- له أكثر من ٢٠ مؤلفاً بالإضافة إلى بعض أعمال التحقيق فمن أهم تلك المؤلفات :
- في مذاهب الإسلاميين - نشر الهيئة العامة للكتابة
- كتاب الصلاة في الإسلام - نشر الهيئة العامة للكتابة
- في تاريخ الطب في الدولة الإسلامية - نشر الهيئة العامة للكتابة
- البهائية وجذورها البابية - طبع المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر - والتوزيع - بيروت -
- القاديانية - طبع المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع - بيروت .
- الخوارج عقيدة وفكراً وفلسفة - دار المعارف بمصر .
- علم الكلام - دار المعارف .
- الأباضية ومدى صلتها بالخوارج - دار المعارف .
- حركة الترجمة وأهم أعلامها في العصر العباسي - دار المعارف .
- ومن تحقيقاته :
- عيون الأنبياء في طبقات الأطباء : لابن أبي أصيبعة في ستة مجلدات - طبع الهيئة العامة المصرية للكتاب .
- قوت القلوب في معاملة المحبوب عز وجل : لأبي طالب المكي بالاشتراك مع الأستاذ الدكتور عبد الحميد مذكور في أربعة مجلدات : طبع الهيئة العامة المصرية للكتاب .
- مختصر إحياء علوم الدين : لأحمد بن محمد الغزالي : طبع الهيئة العامة المصرية للكتاب .
- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار : لابن فضل الله العمري ، " الجزء الخاص بالحكماء " طبع مكتبة الثقافة الدينية في مصر .
- الرقة لابن قدامة - نشر مكتبة الثقافة الدينية .
- كما كتب العديد من الكتب حول شواخ الفكر الإسلامي مثل : الحسن البصري - أبو حامد الغزالي - ابن تيمية - ابن قيم الجوزية

ولعل القارئ لمؤلفات الدكتور عامر يجدها تتسم ببعض السمات التي تخصها عن غيرها من المؤلفات في نفس المجال الصوفي النفسي ، فهي تتسم بـ :

- البعد التاريخي : مثل السرد التاريخي للطرق الصوفية في مصر .  
- النزعة التاريخية المزوجة بالبناء الفلسفي مع عمق معرفي مثل كتابه (نظرات في فكر الغزالي) .

- الرؤية التاريخية لمعالجة قضية ما ذات امتزاج ديني وتاريخي ، ويتضح هذا من خلال مؤلفه ( الشيعة وإمامة علي ) .

ولذلك يمكن التعرف على أن كل إنتاج فكري للدكتور عامر يتسم ببعض السمات والتي تعتمد على ثلاث محاور وهي :

المحور التاريخي - والمحور الفلسفي العقلي باعتبار العقل هو جوهر كل موضوع - المحور العقائدي باعتبار العقيدة أساس التقويم للفكر الإنساني ، ومحور منهج النقد الذاتي ، وأخيراً في بعض مؤلفاته يعتمد على المنهج النفسي الصوفي .

ولعل القارئ أو المتبحر في كتب الدكتور عامر يجد أن العلم الذي يفيض من بين أحرف كلماته يرمي بغايات واضحة في بحثه وكتابات ، وهو المشروع الفكري الذي ينادي به ، مؤكداً أنه من الصعب الوصول إلى مشروع فكري موحد ، ولكن يؤكد أيضاً أنه لا بد أن يكون هناك حد أدنى من الاتفاق بين الفرقاء المتناصرين ، حتى نتعدى منهج التعصب الذي ينتهجه أصحاب الاتجاهات والمذاهب السياسية في حل الخلافات .

ويرى الدكتور عامر إلى أن ذلك المشروع الفكري الكبير يكمن في حل الخلافات التي تنشأ بين العقول والأفكار وهذا المشروع يبنى على قاعدة واحدة وهي " العقيدة " والقواعد المحكمة من الدين ، مع مشاركة العقل المقتدي بنور العقيدة الصائبة ، وهذا المشروع بهذا المعنى يكون بناءً أساسياً لتوحيد صفوف الأمة .

كما يمكنني توصيف فكر الدكتور عامر بأنه فكر منهج وليس مذهب ؛ لأن المذهب يعني أن له بطانة أيولوجية يصعب تحريكها ، وهذا ليس بطبيعة فكره ، بينما فكر الدكتور عامر فكر

المنهج ، وهو الذي يعتمد فيه على مفاهيم عقلية ومنطقية يسهل تحريكها وتغييرها ، كما أن منهجه اتسم بالعلمية ، تلك العلمية التي تجعل من المنهج أداة مرنة للوصول إلى صحة فروض الأفكار لتصبح قوانيناً أو فكراً محدداً أفعاله .

ويعتبر الدكتور عامر النجار أحد تلاميذ المدرسة الشاذلية المحمدية وبالأخص للإمام الراحل محمد زكي إبراهيم حيث تأثر به في الكثير من أرائه واهتماماته ويتضح هذا من خلال ربط كل منهما الأخلاق بالمجتمع على أساس واحد يكفل تقدم وتطور المجتمع وهو ( العقيدة ) أي الكتاب والسنة ، كما أكد الدكتور عامر على ضرورة الاستمساك بالنص القرآني ؛ لأنه قطعي وثبوتي ، إلا أنه أكد على أن النص القرآني يحتاج إلى ملكات عديدة لفهمه وحتى يؤتى أكله مثل العلم باللغة العربية وأسباب التنزيل والتوسط في الفهم وعدم المغالاة .

وهذا التأكيد للدكتور عامر على العقيدة بركنيها الكتاب والسنة يتحقق من خلال قراءة كتبه ومؤلفاته التي تعكس مدى تأثره بالمدرسة الشاذلية المحمدية ، والتي كانت مثلاً يحتذى به في الربط بين الشريعة والحقيقة وهذا من خلال ترديده للكثير من أقوال الإمام الراحل حين قال " التصوف الحق نشأ في بيئة الإسلام ، وأخذ قواعده وأصوله منه ، فالتصوف الذي ندعو إليه وندين به هو سر الإسلام المتمثل في الإيمان بكتاب الله وسنة رسوله الكريم ؛ وهذا على هذا يعتبر عصارة اليقين وإكسير الحقيقة " (١)

كما أنه تأثر به في ضرورة ربط تلك العقيدة بكل ما يصدر من العبد من أفعال أو أقوال حتى لو كانت تحت لواء ما يسمى بـ "الحقيقة" حيث أشار الراحل في هذا المقام قائلاً :  
" الشريعة هي الحقيقة ولا مفارقة بينهما ، فالشريعة جاءت لتكليف الخلق ، والحقيقة جاءت بتعريف الحق - في ظل الشريعة - والشريعة أن تعبد ، والحقيقة أن تقصده - بأوامر ونواهي تلك الشريعة " (٢)

(١) محمد زكي إبراهيم - كلمة الراحل - مطبوعات العشيرة المحمدية - ج ١ - ط ١ - القاهرة - ١٤٢٤هـ - ص ٣٦

(٢) محمد زكي إبراهيم - الخطاب - مطبوعات العشيرة المحمدية - ط ٧ - القاهرة - ٢٠٠٩م - ص ١٥ تصرف

هذا ويظهر تأثر الدكتور عامر بأقوال أحد أهم أعمدة المدرسة الشاذلية ومؤسسيها وهو " أبو الحسن الشاذلي " ومن تلك الأقوال التي تؤيد أن الشريعة هي الحقيقة وأنه لا تعارض بينهما قوله : " إذا عارض كشفك الكتاب والسنة فتمسك بالكتاب والسنة ودع الكشف ، وقل لنفسك : إن الله تعالى قد ضمن لي العصمة في الكتاب والسنة " . (١)

كما استدلل الدكتور عامر في كثير من كتبه بقول الإمام الشاذلي : " الكرامة الحقيقية إنما هي حصول الاستقامة ، والوصول إلى كمالها ، ومرجعها أمران : صحة الإيمان بالله تعالى وإتباع ما جاء به النبي عليه الصلاة والسلام ظاهراً وباطناً " . (٢)

كما أن الدكتور عامر النجار قد أكد على جواز استخدام المنهج العقلي ، ولكن في ضوء الشرع ؛ لأنه كثيراً ما يتخدد ، ولا يمكنه الوصول إلى مساتير الغيب ، إلا بالفتح الإلهي المقيد بالشرع أيضاً ، وهذا من خلال تأكيد أنه ليس من الصواب تجنب دور العقل في الوصول إلى أحد أنواع المعرفة ، ولكن من الصواب أن يستضيء العقل بنور القلب والإيمان ، ويمكن أن تتعدد منافع العقل بتعدد وجوه هذا العقل وأطواره في الوصول إلى المعارف ، فقد صنف الدكتور عامر العقل إلى أطوار تبعاً لدوره في طريق المعرفة ومدى اتصاله بالقلب أو الإيمان ، فهناك عقل بالفطرة وعقل الحجة وعقل التجربة وعقل موروث وعقل ناقص .

و أرى أن هذا النوع الأخير الذي يصبو إلى مناشدته الدكتور عامر حيث يراه أنه العقل الموزون بنور هداية الحق تعالى ، وهو ما يوازي " اللب " وهو محل العلم الإلهي ، وهو الذي صدق فيه قول الحق تعالى < وما يعقلها إلا العالمون > (٣)

وهذا الحديث يظهر مدى تأثر الدكتور عامر بالإمام محمد زكي إبراهيم حين أكد على أنه ليس ضد العقل ، ولا ينفي دوره في تحصيل بعض من المعارف ، إلا أنه أكد أن العقل ليس له العلم

---

(١) عامر النجار - الطرق الصوفية في مصر - الهيئة العامة المصرية للكتاب - القاهرة - ٢٠٠٤م - ص ٣٥

(٢) المرجع السابق - ص ٣٦١

(٣) سورة العنكبوت - آية ٤٣



أو القدرة على معرفة الذات المقدسة ، وذلك لأن العقل حادث ناقص محدد ومقيد بعالمه المادي فكيف يدرك الجزئي الكلي ، وكيف يدرك الناقص الكامل " . (١)

وعما يؤيد تأثر الدكتور عامر بالإمام الشاذلي أنه كان كثير الاستخدام لمنهج التفسير الإشاري للقرآن ، وهذا المنهج يجعل من العقل أداة فعالة في خروج المعاني الخفية في بعض الآيات القرآنية وهذا دليل منه على عدم رفضه للعقل مجملاً ، ولكن كان دائم التأكيد على ضرورة إجماع العقل بلجام الشريعة ، حين فسر آية < وما تلك يمينك يا موسى > (٢) على أنها للصوفي بأنه يسأل ما تلك يمينك يا ولي ، فيقول هي دنياي يا ربي ، فإذا انقلبت حية أخذ حذره منها .

كما أكد الشاذلي أن طريق القصد إلى الله الذكر القلبي وما ينتج عنه لجميع الجوارح والتي منها العقل ، فثمرة الذكر فيه " التفكير " والاعتبار بما يناسب نقصه وكمال الشرع . (٣)

وأيضاً يمكن القول أن من أهم ما يميز الدكتور عامر أنه لم يرفض منهجاً بعينه من المناهج ، وإنما يجمع في نسيج واحد كل تلك المناهج ، سواء المنهج النصي- أو المنهج العقلي أو المنهج الذوقي ، الذي ترتقي به القلوب والنفوس ، هذا الجمع الذي يمتزج مع بعضه دون التصادم بين أحداً منهم لأنه جاعل الشرع اللجام في ذلك الجمع بل التمييز ينصب في استخدام الدكتور عامر النجار للمنهج الصوفي الروحي كأداة لعلاج أمراض النفوس والعقول ، بل لعلاج كبوات المجتمعات وما تتعرض له من أمراض وآفات .

- ولا شك أن مدارج النفس وفهمها يتطلب تطبيق مبدأ " ( النقد الذاتي ) حيث يؤكد الدكتور عامر - وأنفق معه - في أن النقد الذاتي هو التطور إلى الأفضل لأن ذلك المنهج عبارة عن الوقوف على تحليل ورصد القضايا والألفاظ والمعاني بما فيها من سلبيات وإيجابيات ،

(١) محمد زكي إبراهيم - أبجدية التصوف الإسلامي - مطبوعات العشيرة المحمدية - ط ٥ - القاهرة -

٢٠٠٥م - ص ٨٤

(٢) سورة - آية

(٣) عامر النجار - الطرق الصوفية في مصر الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - ٣٠٠٤م - ص ٣٣٥٢ ،

فيهدم السلبيات بالنقض و يقيم الإيجابيات بالبناء الموضوعي ، والأولى أن المجتمع الإسلامي بكل هفواته ونقاط ضعفه عليه أن يطبق تلك المناهج ، وفي مقدماتها منهج النقد الذاتي .

وأما عن التصوف عند الدكتور عامر فلم يتناوله من ناحية تعريفه أو شكله أو نشأته أو تطوره وإنما تناوله بمعنى أن التصوف ليس فلسفة قط أو شعائر أو طرقاً ، وإنما التصوف تاريخ و حركة مجتمع ومسيرة تراكمية ، ومنهج لفهم النفس وعلاجها .

فيرى الدكتور عامر أن التصوف يختلف تبعاً لكل مجتمع ينشأ فيه فهناك حركات تاريخية تثبت أن التصوف حركة سياسية تخدم إطار المجتمع السياسي الذي نشأ فيه ، أو هو تجسيد لشكل المنقذ من الهلاك في المجتمعات التي حل فيها الفساد .

كما أنه ربط بين أحوال المجتمع ودور التصوف في الإلمام بهذه الأحوال ، هذا الدور لا يقف عند التطلع فقط أي السلبية الصوفية ، بل يجب أن يكون التصوف داعياً إلى العمل والتعقل ، أي يدعو دائماً إلى الإيجابية ، كما ربط الدكتور عامر التصوف بعلاج القلوب والنفوس من أمراضها و أدناسها ، فنظر إلى التصوف باعتباره الطبيب النفسي للقلوب .

هكذا يظهر اقتفاء الدكتور عامر بمنهج الرائد في التمسك بالعقيدة ، والعمل بمقتضاها والعلم بما يحقق أفضل مجتمع إنساني ، وهذا يظهر من تأكيد الرائد على أن التصوف ما هو إلا الشريعة الحقة بامثالنا للكتاب والسنة وفي هذا يقول الرائد : " إن التصوف عقيدة وخلق فهي معاملة الله بحسن العبادة ، ومعاملة العباد بحسن الخلق وهذا الاعتبار هو ما نزل به الوحي على كل نبي لذلك فالتصوف هو " الربانية " بجمعه بين العبادة والخلق " .(١)

ثانياً : أهم المناهج التي درست التجربة الصوفية :

إن التجربة الصوفية كانت بمثابة النواة التي ترتب عليها اهتمام الكثير من المناهج العلمية المختلفة ، وإلقاء أنظارهم على علم التصوف ، والتجربة الصوفية ، لتفسير ماهية هذا العلم

---

(١) محمد زكي إبراهيم - أبجدية التصوف الإسلامي - مطبوعات العشيرة المحمدية - الطبعة (٥) - القاهرة - ٢٠٠٤م -

ويذهب أصحاب هذا المنهج إلى الادعاء بوجود عقائد بدائية مأخوذة من مختلف الأجيال في التصوف واعتبر أصحاب تلك المدرسة أن التصوف ظاهرة اجتماعية متوالية من مختلف العادات التي تؤمن بتعدد الآلهة وتقديس الحكام والأولياء .

وأزعم - متفقة مع الدكتور حسن الشرقاوي - أن أصحاب تلك المدرسة قد رموا التصوف بتلك التهمة دون دليل بالإضافة إلى أن الأديان السابوية ليست عقائد بدائية - هذا إن تأثر التصوف بها - بدليل أن هناك آلاف الملايين من البشر ما زال يعتقدون هذه العقائد .  
- منهج البحث النفسي :

هذا المنهج الغربي يعتبر التصوف ظاهرة نفسية ، ولكن من الغريب أن هؤلاء يروا أن التصوف ليست تجربة ذاتية ، وإنما يعتبرونه تجربة مرضية ، تدل على انحراف النفس ، وخروجها على قوانين النفس المطردة ، ويمثلون ذلك بحالات الشطح والفناء والسكر التي يقول ويعيش فيها الصوفية .

ولعلي أجد أن تهكم هؤلاء الباحثين النفسيين على التصوف يتأتى من عدم فهمهم للدين الإسلامي ، فالصوفي في المقام الأول مسلم مؤمن بالله تعالى ، ومن ثم فالإسلام جاء ليهدي ويرشد ويطمأن قلب الخلق ، فلا يمكن أن يكون المهتدي بالإسلام منحرفاً نفسياً ؛ لأنه متمسك وممثل لكتاب الله تعالى وسنته ، وتلك هي الهداية الربانية لقلب ونفس العابد .  
- منهج البحث الفلسفي :

إن أصحاب هذا المنهج ينظرون إلى التصوف باعتباره ظاهرة فلسفية ، حاولت تفسير الوجود بطريقة خاصة وتلك النظرة التي يفسرون بها الوجود تخالف نظرة الفلاسفة التي تتسم بالنظرية ، هؤلاء الذين يتخذون العقل أداة لتفسير الوجود ، أما الصوفية فإنهم يتخذون من الذو التصوف بين علم النفس الصوفي وعلم النفس الحديث

ويمكن الرد على أصحاب تلك المدرسة الفلسفية أن نظرتهم قاصرة في فهم التصوف باعتبار أن الصوفية اعتمدوا على الذوق دون العقل ، فإن هذا الرأي ليس بصائب ولا محق ؛ لأن التصوف لم يسقط زمام العقل ودوره في المعرفة البشرية بجميع أنواعها ؛ لإدراكهم أن هذا

العقل هبة ومنة عقلية من الحق تعالى إلى عباده ولكنهم أكدوا أن هذا العقل الإنساني له حدود وتعال قد يفوقه بعض المعارف .

#### - المنهج الروحي :

هذا المنهج قد تابعه بعض العلماء الفرنسيين ، وهذا المنهج يعتبر أن التصوف الإسلامي تعبير عن الحياة الروحية في العالم الإسلامي وامتداداً لرسالة المسيح عند المسلمين ، أي أن التصوف الإسلامي امتداد للمسيحية بكل مضمونها .

ولعل خير رد على هؤلاء أن التصوف الإسلامي وما دعا إليه من زهد وغيره من تمسك بالأخلاق ، ودعوته للاستعداد لليوم الآخر بكل الأساليب والأدوات ، ولذلك فالتصوف الإسلامي مخالف تماماً للمسيحية ؛ لأن التصوف الذي دعا إليه الرائد - كما سوف يأتي فيما بعد - يدعو إلى أن يأخذ الإنسان نصيبه من الدنيا ، وأن يتزوج ويعمل على خلافة الأرض ، وأعتقد أن المسيحية على خلاف ذلك كله ، ولهذا فلقد أخطأ هذا المنهج في رؤيته للتصوف

#### - المنهج العلمي الموضوعي :

ربما يكون هذا المنهج من أكثر المناهج التي أنصفت التصوف من المهاجرين ؛ نظراً لأن هذا المنهج قد اتبع الطريق العلمي الموضوعي إذ قرر أصحابه أن للتصوف خصائص قد اتصف بها وهو انبثاق عن الدين الذي يدين به مجتمع ما ، فهو يستمد أصوله من هذا الدين ، وقرر أصحاب هذا المنهج أن التجربة الصوفية تجربة ذاتية بحتة. (١)

ويمكن القول أنه لو كان هناك اتفاق عام في الفكر والسلوك الإنساني ، فإن هذا لا يعني أن التصوف قد أخذ من سابقه وتأثر به لدرجة التصوف بين علم النفس الصوفي وعلم النفس الحديث . حاب الفطرة السليمة تسير في طريق الحقيقة ، وتجنبي ثمراتها وإذا وجدت بعض المناظرة ، فإن ذلك يدل دلالة واضحة على أن الحقيقة واحدة ، وأن الله تعالى واحد .

ثالثاً : نشأة علم النفس الصوفي وتطوره :

(١) حسن الشرقاوي - من حكماء الأمة - مرجع سابق - ص ٢٣٩ وما بعدها بتصرف

ترجع نشأة علم النفس الصوفي إلى بداياته من نشأة " العلاج النفسي " الذي يرجع إلى عهود سابقة بعيدة ، غير أن ازدهاره وانتشاره الحقيقي كان في بداية القرن العشرين عندما ظهرت نظرية " التحليل النفسي " باعتبارها نظرية صريحة في دراسة النفس الإنسانية ، وطريقة في علاج الأمراض النفسية ، هذه النظرية فسرت الأمراض النفسية على أنها ليست إلا وسائل تكيف يقوم بها الفرد لمواجهة مواقف صعبة لا يمكنه أن يواجهها بطريقة واضحة سوية ومن أهم ما ترتب على هذه النظرية أنها أثرت في مختلف فروع الخدمات النفسية ، وعلم التوجيه والإرشاد مما أدى إلى تركيز نظر العلماء النفسانيين المهنيين على الجانب التفاعلي بين الفرد والمجتمع الخارجي به ، فإذا تحققت تلك العلاقة بنوع من الاستواء ، كان صاحبها يخلو من الأمراض النفسية ، وإن اختلت تلك العلاقة للفرد بالمجتمع ، وعدم قدرته على التكيف لما حوله من ظروف كان صاحب هذه النفس غير سوي ، ونفسه تعاني الكثير من الأمراض والعلل النفسية .

ويرى البعض أن العلاج النفسي عبارة عن نوع من علاج المشكلات ذات الطبيعة الانفعالية الحادة وهو يقوم ببناء على شخص مؤهل يحاول إيجاد علاقة مهنية مع المريض بقصد معاونته لإزالة الأعراض والأمراض النفسية التي تجعله غير سوي .

ويعتبر من أهم أهداف هذا العلم النفسي العلاجي إزالة العوامل والأسباب التي أدت إلى ظهور المرض وتحويل المشكلات المسيطرة ، إلى مشكلات مسيطر عليها ، والتخلص من الضعف والعجز وتحويل تلك المواطن الضعيفة إلى نقاط قوة في تلك النفس ، وتدعيم بناء الشخص .  
التصوف بين علم النفس الصوفي وعلم النفس الحديث

ولكنني أرى أن علم النفس أو العلاج النفسي في بداياته كان تركيزه محصوراً في طبيعة تلك العلاقة بين الفرد والمجتمع ، دون النظر إلى نفس الفرد في داخلها ، وما قد يشوبها من نقص أو مرض يؤثر على إيجابيتها في تلك العلاقة ، أي أن استخدم المنهج التجريبي لرصد تلك العلاقة ، دون أن ينتهج المنهج الاستنباطي لرصد أهم أفات النفس الخفية وما يبطن بها من

(١) سيد عبد الحميد مرسي - ونفس وما سواها - مكتبة وهبة - ط ١ - القاهرة - ١٩٨٥م - ص ١٨٧ ، ١٨٩

خفايا ، ومن هنا فشل هذا المنهج التجريبي العلمي الذي أخذ بأدوات ووسائل بعيدة كل البعد عن طبيعة النفس الباطنية ، ولهذا كان لابد من ظهور علم قريب فهمه من تلك الطبيعة الخاصة بروحانية النفس وخفاياها ، وهذا العلم هو علم النفس الصوفي .

ويمكننا القول أن هذا العلم النفسي الصوفي كان مرجعيته الأولى ، ولبنته الأساسية القرآن الكريم ، حيث نزل القرآن هادياً لنفس الإنسان لما فيه من الطاقات الروحية الهائلة ، تلك القوى التي تهز وجدان المؤمن ، وترقه إحساسه ، وتوقظ إدراكه لما فيه الهدي له ، وليس فيه التيه والتضليل ، ويجلي بصيرته ليدرك حقائق الأمور ، وينزلها منزلها الحق لها .

رابعاً :- حقيقة علم النفس الصوفي ومبناه عند الدكتور عامر :

وتذيلاً لما يبق يؤكد فيه الدكتور عامر أن علم النفس لا إمكانية له في تبديل النفس أو تغييرها تغيراً جوهرياً لأن النفس تأخذ شكلها النهائي في السنوات الخمس الأولى من الطفولة ، ولا يكون للطب النفسي دور في هذا الوقت وما عدا هذا من إخراج الكبت والهم وغيره ، ما هو إلا مجرد مسكنات لا تؤدي إلى تغير في النفس .

أما الدين - بمعنى التصوف الإسلامي - فله الإمكانية في انتقال النفس من ظلمة البهائم إلى نور الحضرة الإلهية ، ومن حضيض الشهوات إلى ذروة الكمال الخلقي .

وعلى هذا يري الدكتور عامر أن جميع الأمراض النفسية وأمراض النفوس بنفس نقص الإيمان مستشهداً في ذلك بقول ( كارل يونج وكذلك قول ويليام جيمس ) :

" إن كل المرضي الذين يعانون القلق وجميع أمراض النفوس يستطيع رجل الدين أن يعالجهم بإعادتهم إلى الإيمان بالله والتمسك بالدين " ١ . التصوف بين علم النفس الصوفي وعلم النفس الحديث

وأزعم أن ذلك المنهج الذي يشير الدكتور عامر بمثابة خير رد على من ادعى أم النظرية الإسلامية ، وهذا لأنني أؤكد أن النظرية الإسلامية تتفق مع علم النفس الحديث في مبدأ

"الوسطية" الذي نادى به أرسطو وأفلاطون ، وهو ما نادى به أرسطو وأفلاطون ، أي أن الفضيلة وسط بين رذيلتين ، كذلك النظرية الإسلامية دعت إلى التوسط في الفضيلة دون إفراط ولا تفريط ، وهذا استناداً لقوله تعالى < وكذلك جعلناكم أمة وسطاً > فمثلاً لو انقطعت شهوة الطعام لهلك الإنسان .

ولذلك فوسطية الإسلام حق ؛ لأنها وسطية في الزمان والمكان والأخلاق والفضائل ، وهي الملجأ الوحيد في وقاية النفس الإنسانية من عللها وآفاتاها ، فتلك الوسطية هي الموطن الوحيد الذي يستطيع أن يستوعب التجربة الصوفية وما بها من متغيرات وأحوال مختلفة .

وعلى هذا يؤكد الدكتور عامر أن الإيمان باعتباره إكسير الإسلام ، ومضمون التصوف الحق هو الوسيلة الأساسية في تحقيق " النفس السوية " في العلاقات الإنسانية ، مهما اختلفت النفوس وما بها من متغيرات أو معاني ، ولهذا يعترض الدكتور عامر على من اتخذ من الإيمان وسيلة لعلاج النفس ولكن بطريقة ( الاعتراف بالذنب ) ؛ لأن هذا ليس هو المنهج الإسلامي وإنما المنهج الإسلامي يدعو إلى الاعتراف بالذنب بين العبد وربّه ، بمعنى أن يندم العبد على هذا الذنب ثم يتوب ثم يعزم على عدم العودة له مرة أخرى والسير في طريقه إلى مرضاة الله عن طريق تمسكه بالكتاب والسنة ، وهذا ما يجعل النفس الإنسانية أكثر هدوءاً واستقراراً وسلامة وأماناً مما يمكن أن يشوبها من أمراض وآفات .

وفي هذا المعنى يستشهد الدكتور عامر بقول أستاذه الشافعي المحمدي محمد زكي إبراهيم " إن الإيمان معناه القيام بواجب الاعتراف بعجز العبودية عن الإحاطة بأسرار الربوبية وإحسان الظن بما لا تفهمه الفهوم وهذا المعنى هو رحي الثقة بالله ومحط هدوء وعلاج النفس). (١)

وكذلك قوله : " إن التصوف هو الانقياد الباطني ، وهو الإيمان بوصفه عمل من أعمال القلب فهو التزكية والتطهير والربانية للنفس ، فهو الغاية والثمرة التي لا تتاح إلا للسالك المريد الموفق الذواق " (١)

وعلى ذلك يؤكد الدكتور عامر أن الخلاص من تلك العلل والأمراض النفسية أو الروحية يكمن في " الدين " بمعنى التزكية والتقوى والتربية الروحية للنفس ومجاهدتها في كل ما هو مألوف لها ، وهذا هو بعينه معنى التصوف النفسي .

وإجمالاً لما سبق ألاحظ أن الدكتور عامر فقد تشابه حديثه مع العديد من العلماء الغربيين المستشرقين ، ومنهم حديث " ألكسيس كارل " العالم الفرنسي الذي يتفق معه الدكتور عامر حين قال " ومن الغريب أن الإنسان الحديث استبعد الدين والقيم الروحية ، وطوق نفسه بدائرة الحياة المادية ، بالرغم من التفاف جميع الأمراض النفسية المعقدة حوله ، إلا أنه لم يدرك أن الحل في الرجوع إلى الدين والعقيدة الفطرية " .

ويتفق كذلك الدكتور عامر مع مقولة الدكتور " سير رتشارد لفنجستون " وكيل جامعة اكسفورد حين قال : " إننا نعيش في عالمين : العالم المادي ، والعالم الروحي ..... ، والأخير هو عالم القيم والمحاط بالعبادة الإلهية ، وهو الذي فيه التخلص من قيود المادية التي نعيش فيها " . (٢)

ونتيجة لما سبق فلقد أكد الدكتور عامر - وأنا أتفق معه - في أن النفس الكريمة هي التي كملت محاسن الأخلاق التي بها كمال النفوس ووسيلتها في ذلك : التحلي بعقائد الإسلام فتتكون من تلك الإيمانية إرادة قوية في الفعل والترك ؛ لتملك بها بزمامها ، تلك الإرادة التي لا تكون إلا عن عقيدة راسخة ، وعن هذا إصلاح النفس بمعالجتها بالتوبة الصالحة " .

ولي أن أعلق على ذلك المبحث الخاص بعلم النفس الصوفي منتهجة في ذلك التعليق بمنهج الدكتور عامر النجار والدكتور حسن الشرقاوي - وهما من أهم رواد المدرسة الشاذلية

(١) محمد زكي إبراهيم - أبعاد التصوف الإسلامي - ص ٢٤

(٢) مقداد يالجن - فلسفة الحياة الروحية - دار عالم الكتب - ط ٢ - القاهرة - ١٩٨٩م - ص ٥١ - ٥٢



المحمدية - تلك المدرسة التي أبدعت في ذلك العلاج النفسي- الصوفي في علاجه للنفوس المريضة حين أشير أن المنهج العلمي النفسي الحديث لا يهتم بالعقيدة الدينية وأثرها على النفس الإنسانية وما يترتب عليها من الهدوء والسكينة الربانية ، بل يؤسسون منهجهم على لغة الأرقام والرصد الميداني التجريبي ، الذي في الغالب يخفق في الإحاطة بطبيعة النفس الروحانية .

كما يمكنني القول أن مناهجهم في التربية وتهذيب النفوس تقوم على أسس جامدة ، ونظم تقليدية ، مما تجعل المريض أو المريد السالك يمل عملية العلاج لما في نفسه من أمراض (١) خامساً : التصوف بين علم النفس الحديث وعلم النفس الصوفي :

ويؤكد الدكتور عامر النجار على أن الكثير من علماء النفس الذين درسوا الظواهر النفسية للتصوف دراسة علمية ، لم ينصفوا التصوف ، ولعل هذا راجع إلى بعض الأخطاء المنهجية في الدراسة ، فهم كانوا يحدون أنفسهم في دائرة التجربة الحسية وحدها ، ولم يدققوا في فهم مصطلحات الصوفية التي عبروا بها عن أحوال وجدانية ذاتية خاصة لا تتصف بصفة العمومية

ولذلك يرى الدكتور عامر أن التصوف يمكن أن يكون استعداداً أو ميلاً أو مزاجاً أو موهبة ولكن تلك الموهبة لا تجعلنا أن نقصر التصوف على أفراد دون الآخرين الذين يريدون تصفية نفوسهم ولا يمكننا جعل التصوف اكتساب من التمارين والخلوة والمجاهدة ، وإلا فيكون ممكناً لكل الصوفية بسهولة .

ولهذا يفرق الدكتور عامر بين ما يتم نفسياً في الحياة الصوفية ، وبين دوافع الحياة الصوفية أو الروحية .

- بالنسبة للنقطة الأولى ، فيرى أن الأمر فيه ليس أكثر من يقظة الإنسان لانحرافه ومحاولة إصلاحه وتعويضه ما فاته عن طريق التوبة والإخلاص .

- أما النقطة الثانية : فيرى فيها الدكتور عامر أن الظروف فيها تختلف باختلاف الأفراد . (١)

وفي النقطة الثانية يحضرنى قول الدكتور مقداد بالجن والذي يتفق فيه مع الدكتور عامر حين أشار إلى أن هناك اختلاف في لجوء العبد إلى التصوف ، ولكن هناك سبب جوهري يتخفى وراء تلك الأسباب ألا وهو : إهمال الحياة الروحية ، ولذلك قد يتسبب هذا الإهمال في أمراض مباشرة مثل : الاكتئاب والقلق وغيرها ، أو أمراض غير مباشرة مثل : الرذائل الأخلاقية والجرائم التي ترتكب (٢)

وأرى أن التصوف ما هو إلا فطرة قد فطرنا عليها من الحق تعالى فكل إنسان لديه جزء من التصوف الكامن بداخله ، فإذا غرق الإنسان في شهواته وملذاته ثم تيقظ بنعمة الله ومنه عليه فأدرك أن عليه سقوط هذه الكواهل من علي نفسه حتى تطهر ، فيعمل علي تصفية نفسه بالعودة أولاً إلي نفس الإنسان الطبيعية المألوفة علي طاعة الله ، ثم يدرك ما فعله من خطأ فيتوب ويلوم نفسه وهذا لقوله تعالى > ونفس ما سواها فألها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد حاب من دساها < . (٣)

كما يرى أن الصوفي يمكنه إجراء قياس أو مقارنة بين الظواهر الكونية والنفس الإنسانية أي الربط بين ميتافيزيقا الكون الذي نحيا فيه ، وبين النفس الإنسانية ، وما بينهما من روابط لأن التصوف لا يفصل النفس عن النظام الكوني ، فيعبر الصوفي عن تلك العلاقة بما ينطبع في نفسه من معان حتى وإن كانت غير منطقية عقلياً ؛ ولهذا أكد الدكتور عامر أنه قد أخطأ من يطبق قواعد المنطق على التصوف ؛ لأن المنهج الصوفي منهج وجداني ذوقي يكون خالياً من التصورات والعبارات ، فهو لا يمكن وصفه بالمنهج والعبارات العقلية .

وعلى ذلك فأرى أنه يجب أن نسلم بأنه هناك أفكاراً للوجدان الصوفي ، بالرغم أن الصوفي قد يذكر أفكاره عن تجربته ، فهو يذكرها حين يعود إلي وعيه المقيد بالحس والعقل ، ولكن

(١) عامر النجار - التصوف النفسي - ص ٣٨١ / ٣٨٢

(٢) مقداد بالجن - فلسفة الحياة الروحية - دار عالم الكتب - ط ٢ - لبنان - ١٩٨٩م - ص ٥٣

(٣) سورة الشمس - آية ٧ ، ٨

التجربة نفسها لا يوجد فيها فكر بل هي وجدان خالص ؛ ولذلك فهي مرفوضة عند أصحاب المنهج العقلي . (١)

وفي هذا الصدد يعرض لنا الدكتور عامر بعض الاعتراضات التي تذهب إلى أن أي وجدان بغير إحساس أو تخيل أو فكر لا يمكن تصوره ، فيري الدكتور عامر أن هذا الرأي له وجاهته ، ولكن في نفس الوقت يعكس سداخته الخفية ، وقصر نظره ؛ لأنه يفترض أن احتمالات هذا الكون الكبير مقصورة على ما يمكن تخيله أو فهمه بالقوة الإنسانية العادية ، ومن ناحية أخرى يؤكد الدكتور عامر أنه ليس هناك مبرر لافتراض أن الوجدان الصوفي معجزة ، فمما لا شك فيه أنه كوجداننا العادي تماماً من حيث أنه يتجه بتدرج طبيعي ، ويمثل مرحلة من مراحل التطور بوسائل معروفة وموجودة لدى أناس قلائل ، وهو يعتبر حقيقة سيكولوجية تدعمها أدلة كثيرة ، وليس استبعادها أو تكذيبها رأياً حقيقياً .

وعلى هذا يؤكد الدكتور عامر أن التجربة الصوفية لا يحكم عليها بالصدق أو الكذب ، إلا أن التجربة الصوفية تكاد أن تكون واحدة في جميع الأمم رغم اختلاف الأديان ومذاهب أصحابها ؛ ذلك لأن التجربة الصوفية هدفها واحد ألا وهو الشوق الإنساني في الداخل لمعرفة الحق والاتصال به . (٢)

ومما سبق يمكن القول أن الدكتور عامر ينظر إلى التجربة الصوفية إنها في حد ذاتها برهان واقعي (بمعني محدد ) وليس بالمعني العلمي التجريبي ، وأنها اعتراف عملي بحيوية الدين وبحقيقة وجود الإله بنحو يسمح بالاتصال به والقرب والعناية منه .

ولذلك يؤكد الدكتور عامر أن الباحث لكي يحكم على هذا النوع من التصوف حكماً صحيحاً فلا بد له أن يقوم بتجربته ، أو أن يكون لديه استعداد معين لذوقه ، أما ما يصطنعه علماء النفس في بعض الأحيان في استخدام منهج الماثلة في دراسة حالات الوصف ، فهذا هو الخطأ بعينه .

(١) عامر النجار - التصوف النفسي - ص ٣٩٠

(٢) المرجع السابق - ص ٣٩٣ / ٣٩٤

وعلى هذا يرى الدكتور عامر أن علم النفس وعلم الاجتماع كلاهما قد اخفقا إخفاقاً كاملاً في الوصول إلى كنه التصوف بل إن الدراسات النفسية الحديثة أفسدت الفكرة عن التصوف ، شأنها في ذلك شأن في كل ما اتصلت به من الدراسات التي تتعلق بالروحانيات والوحي والإلهام ، لأن تلك الدراسات الحديثة حددت نفسها بمنهج الماديات والظواهر الحسية ، وما خرج عن ذلك فلا مجال لبحثها فيه .

وتدريجاً لما سبق يؤكد الدكتور عامر أنه من الإنصاف أن نعترف للصوفية بسبقهم في ميدان النفس الإنسانية ، فقد كان الصوفية أطباء نفسيين من حيث أنهم استخدموا منهج الاستبطان أو تأمل الذات استخداماً دقيقاً في مجال الشعور ، فلم يكتفوا بدراسة ظاهر النفس بلا تعمقوا في دراسة باطنها ، وتعرفوا كذلك على كوامنها ، والتي منها " اللا شعور " والذي ينشأ منه كل الأفعال والسلوكيات المختلفة للإنسان ، مستدلاً بقول الفيلسوف المعاصر " إميل بورتون " حين قال : " كثيراً ما كان الصوفية أنفسهم سيكولوجيين كباراً ، فتأمل الحياة الباطنية عندهم هو الشاغل الأكبر ، وعلى هذا يجب أن نلاحظ بعين الاعتبار إلى ما توصلوا إليه ككتشافات بدلاً من اعتبارهم مرضى (١) "

وعلى ذلك يؤكد الدكتور عامر أن علم النفس لا إمكانية له في تبديل النفس أو تغييرها تغييراً جوهرياً ؛ لأن النفس تأخذ شكلها النهائي في السنوات الخمس الأولى من الطفولة ، ولا يكون للطب النفسي دور في هذا الوقت ، وما عدا هذا من إخراج الكبت والهم وغيره ما هو إلا مجرد مسكنات لا تؤدي إلى تغير حقيقي أو جوهري في النفس

أما الدين بما يمثله من اهتمام بالإنسان والنفس الإنسانية - بمعنى التصوف الإسلامي - فله الإمكانية في انتقال النفس من ظلمة البهائم إلى نور الحضرة الإلهية ، ومن حضيض الشهوات إلى ذروة الكمال الخلقي .

ولذلك يرى الدكتور عامر أن جميع الأمراض النفسية وأمراض النفوس تكون عادة بسبب نقص الإيمان مستشهداً في ذلك بقول ( كارل يونج وكذلك قول ويليام جيمس ) :

"إن كل المرضى الذين يعانون القلق وجميع أمراض النفوس يستطيع رجل الدين أن يعالجهم بإعادتهم إلى الإيمان بالله والتمسك بالدين". (١)

وأزعم أن ذلك المنهج الذي يشير الدكتور عامر بمثابة خير رد على من ادعى النظرية الإسلامية، وهذا لأنني أؤكد أن النظرية الإسلامية تتفق مع علم النفس الحديث في مبدأ "الوسطية" الذي نادى به أرسطو وأفلاطون، وقولهم، أي أن الفضيلة وسط بين رذيلتين، كذلك النظرية الإسلامية دعت إلى التوسط في الفضيلة دون إفراط ولا تفريط، وهذا استناداً لقوله تعالى > وكذلك جعلناكم أمة وسط < (٢) فمثلاً لو انقطعت شهوة الطعام هلك الإنسان.

ولذلك أرى أن وسطية الإسلام هي وسطية الحق؛ لأنها وسطية في الزمان والمكان والأخلاق والفضائل.

ثم يعترض الدكتور عامر علي من اتخذ من الإيمان وسيلة لعلاج النفس ولكن بطريقة

(الاعتراف بالذنب)؛ لأن هذا ليس هو المنهج الإسلامي، وإنما المنهج الإسلامي يدعو إلى الاعتراف بالذنب بين العبد وربّه، بمعنى أن يندم العبد على هذا الذنب ثم يتوب ثم يعزم على عدم العودة له مرة أخرى والسير في طريقه إلى مرضاة الله عن طريق تمسكه بالكتاب والسنة.

وفي هذا المعنى يستشهد الدكتور عامر بأحد الصوفية النفسانيين الكبار وهو محمد زكي إبراهيم رائد الطريقة المحمدية حين قال: "إن الإيمان معناه القيام بواجب الاعتراف بعجز العبودية عن الإحاطة بأسرار الربوبية، وإحسان الظن بها لا تفهمه الفهوم، وهذا المعنى هو رحي الثقة بالله، ومحط هدوء وعلاج النفس". (٣)

(١) المرجع السابق - ص ٣٧٥

(٢) سورة البقرة - آية ١٤٣

(٣) محمد زكي إبراهيم - كلمة الرائد - ج ١ - ص ٥١

وكذلك يقول محمد زكي إبراهيم " التصوف هو الانقياد الباطني ، وهو الإيثار بوصفه عمل من أعمال القلب ، فهو التزكية والتطهير والربانية للنفس ، فهو الغاية والثمرة التي لا تتاح إلا للسالك المرید الموفق الذواق . " (١) .

وفي ما يخص تصنيف الإنسان من الأمراض النفسية والجسمانية ، فقد تشابه حديث الدكتور عامر مع حديث " ألكسيس كارل " العالم الفرنسي حين قال :  
" ومن الغريب الملاحظ أن الإنسان الحديث استبعد الدين والقيم الروحية ، وطوق نفسه بدائرة الحياة المادية ، بالرغم من التفاف جميع الأمراض النفسية المعقدة حوله ، إلا أنه لم يدرك أن الحل في الرجوع إلى الدين والعقيدة الفطرية " .

ويتفق كذلك الدكتور عامر مع مقولة الدكتور سير رتشارد لفنجستون وكيل جامعة اكسفورد حين قال : " إننا نعيش في عالمين : العالم المادي ، والعالم الروحي ..... ، والآخر هو عالم القيم والمحاط بالعناية الإلهية ، وهو الذي فيه التخلص من قيود المادية التي نعيش فيها " (٢) .

ولعلي ألاحظ أن الدكتور عامر قد تأثر بالدكتور سيد مرسى حين اتفق معه في أن جميع الدراسات السابقة لتاريخ الأديان ، وخاصة الدين الإسلامي ، تمدنا بأدلة واضحة وصریحة بأن الإيثار بالله من أعظم أساليب النجاح في شفاء النفس الإنسانية من أمراضها وعللها التي تصيبها والتي من أخطرها القلق والشك والانحراف عن الطريق السوي لتلك النفس ، ولكي يكون هذا الإيثار حصناً منيعاً للنفس الإنسانية ، لابد وأن يقترن " بالتقوى " .

فالتقوى هي أن يتقي المؤمن صاحب النفس السوية الحق تعالى في كل سكناته وحركاته وأقواله وأفعاله بما يحقق له السكينة والأمن والطمأنينة في نفسه ، فإذا تحقق المؤمن بهذا المعنى الأولي يمكنه أن يتحقق بالمعنى الآخر للتقوى وهو تحكم المؤمن في انفعالاته ودوافعه وسيطرته على ميوله وشهواته ، فهذه التقوى تعد إحدى الوسائل التي بها يحاول المؤمن

(١) محمد زكي إبراهيم - أبجدية التصوف الإسلامي - ص ٢٤

(٢) مقداد يالجن - فلسفة الحياة الروحية - دار عالم الكتب - ط ٢ - القاهرة - ١٩٨٩م - ص ٥١ - ٥٢

السوي أن يسيطر على ذاته ، وأن يحسن من سلوكه ؛ حتى يحقق معنى الأمن والهدوء النفسي- لذاته (١)

وأعلق على تلك اللطيفة السابقة في دور الإيمان في شفاء أمراض النفوس بأن هذا الحديث يعتبر خير رد على من يدعي أن الخروج عن الإيمان ، وأن الاقتداء بالعلم هو السبيل الأوحى لإدراك أمراض النفوس ، حيث أن هؤلاء العلماء الماديين العلمانيين أخفقوا في فهم الحالة الروحانية التي تمر بها النفس في مسيرتها في الحياة ، وطبيعتها الباطنية التي لا يمكن للعلم التجريبي الوصول لها ، وعلى ذلك يمكن القول أن العلم ليس خصماً للإيمان ، ولكن الإيمان يعتبر هو الهادي والمرشد لذلك العلم في تناوله طبيعة النفس ، وما قد يصيبها من علل وأمراض خاصة بها .

وعلى ذلك يمكنني الاتفاق مع الدكتور حسن الشرقاوي - والذي علق عليه واتفق معه الدكتور عامر- أن الطب النفسي ، والعلاج الصوفي الإسلامي يقوم على أساس اللجوء إلى الله تعالى وهذا هو الإيمان في معناه الفعلي والعملي ، ففي هروب الإنسان إلى الملجأ الإلهي نوع من الأمن والهدوء النفسي الذي لا يمكن تحصيله بأي وسيلة أخرى . وهذا المعنى هو ذاته ما أشار إليه " ول ديورانت " حين قال :

" لم يعرف الأوروبيون شيئاً عن الطب الصحيح ، بينما كان أطباء المسلمين في ريعان تقدمهم ولذلك يمكنني أقول أن الطب النبوي بشقيه النفسي والبدني هو أعظم طب وأنفعه للإنسان والدواء الدستوري أتم وأكمل علاج ؛ لأنه مستمد من الكتاب الإلهي العظيم ، والسنة النبوية لصاحب الرسالة المحمدية الإسلامية ، والتي بها طب النفوس علماً بطبيعتها الروحية" (٢)

(١) سيد عبد الحميد مرسي - الإيمان والصحة النفسية - مكتبة وهبة - ط ١ - القاهرة - ١٩٩٠م - ص ١٩٤ ، ١٩٨

(٢) حسن الشرقاوي - الطب النفسي النبوي - دار المطبوعات الجديدة - الإسكندرية - القاهرة - ١٩٨٣م - ص ١٦٨

ونتيجة لما أسلفنا ذكره يمكنني أن أؤكد أن الدكتور عامر اقتدى بمنهج أستاذه الإمام الراحل كما أن كل منهم قد سار على نهج السلف الصالح وتناولوه لقضية علاج النفس من خلال العقيدة الإسلامية ، ومن هؤلاء : ( ابن باديس ) . ( ١ )

فقد أكد على أن النفس الكريمة هي التي كملت محاسن الأخلاق التي بها كمال النفوس ووسيلتها في ذلك : التحلي بعقائد الإسلام ، فتكون من تلك الإيمانية إرادة قوية في الفعل والترك لتملك بها بزماتها ، تلك الإرادة التي لا تكون إلا عن عقيدة راسخة ، وعن هذا إصلاح النفس بمعالجتها بالتوبة الصالحة ."

وإجمالاً لما سبق يمكنني القول أن الدكتور عامر يقتضي في هذا المنهج الإسلامي الصوفي النفسي منهج أهل السنة ، لما يؤكد أنه يؤكد أهل السلف الصالح في أن تنقية النفوس ومعالجتها لا يتأتى إلا من خلال التمسك بالعقيدة ( الكتاب والسنة ) ، وصحة العلم ، ومقتضى العمل به .

- سادساً : طبيعة الأحوال الصوفية وخصائصها عند الدكتور عامر :

بعد أن أكد لنا الدكتور عامر إخفاق المنهج العلمي المادي ، وغيره من المناهج التي قد سبق ذكرها في التعريف بالتجربة الصوفية ، وحقيقة ماهيتها ، يؤكد لنا أن التجربة الصوفية متعددة الحالات والتي يمكن أن يمر بها الصوفي ، مؤكداً أن تلك الحالات لا يمكن التعبير عنها في صورة لفظية دقيقة ، أو نقل مضمونها للآخرين ؛ لأنها حالات شعورية أكثر منها حالات عقلي ذهنية ، ولذلك أضفى عليها الدكتور عامر بعض السمات الذاتية التي تميزها عن غيرها من التجارب ، ومنها :

\* الأحوال الصوفية أحوال إدراكية :-

( ١ ) ابن باديس : هو عبد الحميد بن باديس - ولد في باريس في ١٨٨٩م - وأخذ مبادئ الإسلام واللغة العربية من الشيخ



ويعني بها الدكتور عامر أن هذه الحالات ولو أنها تشبه الحالات الوجدانية ، إلا أنها تبدو لأصحابها حالات معرفة ، بمعنى أن الصوفية يصلون من تجاربهم إلى حقائق عميقة ، وليس الوصول إليها بالبرهان ، ولكنها ومضات إلهامية مثل : اللوامع (١) والطوابع (٢) .

#### \* الأحوال الصوفية سريعة الزوال :

إنها حالات لا تستمر طويلاً ، بمعنى أنها لا تزيد عن نصف ساعة أو ساعة ، وبالرغم من سرعة زوالها إلا أن لها تأثير ثابت وواضح على صاحبها ، وهن أمثلتها : اللوائح (٣) .  
وإني أرى أن هذا الرأي الذي يحدد وقت ومساحة التجربة مع صاحبها فيه نوع من المصادرة أو ضيق الأفق ؛ لأن المعروف أن الصوفي ابن وقته ، فليس هناك ما يحدد التجربة الخاصة به ، ما دام الصوفي في حالة استعداد وتحلي ، فلا يقف كشف أو شهود أو معرفة عنه إلا إذا تخلص عن تلك الحالة الوجدانية أو تخلص بنوع من العقل الذي قد يمنع تلك المعرفة القلبية ، أو يخرج من تلك الحالة إلى ما ينافيها في ذلك الشهود ، فلا قاطع للوقت إلا إذا أراد الصوفي قطعه .

#### \* الأحوال الصوفية ليست إرادية :

أي أن الإنسان لا يحدثها بإرادته حتى ولو التبرية في أغلب الأحيان تحدث نتيجة انتباهه بحقيقة عبوديته ، ومجاهدته ، ولكن الصوفي حين يمارس تجربته يشعر كما لو كانت إرادته الشخصية معطلة ، فلا يكون له دخل في تجليات تلك التجربة . (٤)  
ولكنني أستند في تلك الجزئية إلى منهج أهل السنة في تأكيدهم أن دين الإسلام قد أكد على أهمية النية وتحديدها في كل فعل وقول يقوم به العبد ، كما اتفق الصوفية في ذلك مع أهل السلف الصالح وهذا الاهتمام لا يصح إلا إذا كان الإنسان في منتهى الصحة لكل ما يصدر عنه أو كل ما يتلقى به من خواطر أو دواخل عليه ، وعلى هذا يجب أن يكون الإنسان في حالة

(١) اللوامع : هي ما ثبت من أنوار التجلي وقتين وقريباً . الجرجاني ، التعريفات - ص ٢٣٩

(٢) الطوابع : أنوار التوحيد تطلع على قلوب المعرفة فطمس سائر الأنوار . الجرجاني - التعريفات - الصفحة السابقة

(٣) اللوائح : ما يلوح من الأسرار الظاهرة من السمو من حال إلى حال . الجرجاني - نفس الصفحة

(٤) عامر النجار - التصوف النفسي - ص ٣٩٤

انتباه ، وإذا غفل تلقت نفسه اللجام منه ، حتى وإن كان داخل التجربة الصوفية ، وتصور له نفسه أن تلك الأعمال الخيرة التي يقوم بها ، وتلك المكاشفات والتجليات التي حظا بها إنما هي من جمال نفسه وعظمتها فتدخل عليه العجب والكبرياء ، فلا بد أن يكون للعبد إرادة في تلقي الواردات والخواطر التي تتجلي عليه .

وتأثر الدكتور عامر النجار بهذا المعنى عند الإمام محمد زكي إبراهيم حين قال :

" الصوفية الراشدون أفادوا الدين والدنيا ، ونجحت تجاربهم الصوفية إلى درجة اليقين الرجعي فقد أصابوا حقيقة الشريعة من القيام بالفرائض المفروضة ، وأصابوا حقيقة الحقيقة عندما أصابوا من أسرار القدس الأعلى وأنواره ، ولذلك فالتجربة الصوفية من الدين ، والدين عقل وعاطفة علم وأدب . (١)

ومما سبق يؤيد الدكتور عامر أن الحالات التي يعيشها الصوفي سواء في حالة هدوء نفسي- أو اشتياق ولوعة ، أو بحث عن الحقيقة فكل تلك الحالات تكمن في تمسكه بالدين من خلال الكتاب والسنة وعرض كل ما يتجلي عليه علي هذا السند .

ولذلك يؤكد الدكتور عامر أن طريقة الملاحظة لدراسة الأحوال النفسية لا تكفي وحدها وهذا هو أسلوب المنهج العلمي ، والذي ثبت إخفاقه في دراسة التجربة الصوفية ، لهذا كان المنهج الاستنباطي التأملي للنفس الباطنة ، هو المنهج الأمثل لملاحظة النفس وما يدور بداخلها وهو منهج الملاحظة الذاتية بتفقد الإنسان لسرائر نفسه ، مستدلاً في ذلك بقول المحاسبي " تفقدوا السرائر في كل حين ، عسي أن يكون منكم مصر علي بعض المعاصي ولا يشعر " . (٢)

ويرد الدكتور عامر علي بعض الاعتراضات التي وجهت لمنهج الاستبطان من المدرسة السلوكية بدعوة أن هذا المنهج ذاتي فردي وليس موضوعي ، فهو ليس إذن بالمنهج العلمي

(١) محمد زكي إبراهيم - أصول الوصول - عامر النجار - التصوف النفسي - ص ٣٩٤

(٢) المرجع السابق - ص ٣٤٣

فريد الدكتور عامر أنه لا شك أن المنهج الاستبطاني وحيلة مهمة لتعرف محتويات اللاشعور ويريح يهدي الباحثين إلى التوصل إلى قدر لا بأس به من أسرار النفس .

وأزعم أن الدكتور عامر قد انتهج هذا المنهج الاستبطاني حين تمسك بالمنهج القراءاني في تصحيح النفس وتطهيرها ، وهذا المنهج الذي يدعو إلى النظر في آيات الله في النفس واستعدادها للأوامر الإلهية ، وهذا هو المنهج الذي انتهجه الإمام الرائد في دراسته للنفس الإنسانية حين قال " إن التصوف الحق هو التزكية ، أي الطهارة الخلقية والذاتية والنفسية وكل ما هو باطن ، في الحس والمعنى . (١)

وعلى هذا الأساس من السمات والصفات التي تتسم بها التجربة الذاتية يمكن كذلك تحديد أهم سمات الشخصية النموذجية عند الدكتور عامر النجار في ضوء هذا المنهج الصوفي الإسلامي النفسي .

خامساً : الشخصية الصوفية النموذجية عند الدكتور عامر النجار :

إن الدكتور عامر النجار يحدد أهم السمات التي يجب أن يتحلى بها الشخصية النموذجية الصوفية والتي أُلهمها من المنهج الصوفي الإسلامي النفسي ، ولعلي أجد أنه جدير بالذكر بداية التعرف على مصطلح الشخصية الإنسانية كما أورده الدكتور عامر وهو :

" المفهوم الذي يصف الفرد من حيث هو كل موحد من الأساليب السلوكية والإدراكية المعقدة التي تميزه عن غيره من الناس وبخاصة في المواقف الإيجابية " .

- سمات الشخصية السوية النموذجية عند الدكتور عامر النجار :

ويرى الدكتور عامر أن الصوفية بشفافيتهم النفسية ، ودقة فهمهم للنفس الإنسانية ، كانوا من أبرز من تعرف إلى سمات الشخصية الإنسانية ، أي النواحي الخلقية والعادات وأساليب السلوك المكتسبة ، وارتباطها بالبيئة ، ولقد تعددت تلك السمات ما بين :

- السمات الخلقية :

ويرى الدكتور عامر أن الناحية الخلقية من أهم السمات للشخصية الإنسانية ، وتتكون الصفات الخلقية عند أي إنسان نتيجة ما يكتسبه من البيئة الخارجية ، وهي صفات تعتمد أساساً على التعليم والتربية والتلقين ؛ ولهذا فالجانب الخلقى في الإنسان قابل للتغيير والتعديل والتطور والتقدم . (١)

وعلى ضوء ما سبق من تلك السمات الخلقية الحياتية التي حددها الدكتور عامر يتفق مع (سلو) و (ملمان) وهما من أهم المحللين النفسيين في أن للنفس الإنسانية السوية صفات وسمات ومنها : شعور كامن بالأمن ، درجة معقولة من تقويم الذات والاستبصار ، أهداف واقعية في الحياة ، اتصال فعال مع الواقع ، ثبات في الشخصية تلقائية مباشرة ، انفعالية محددة ، القدرة على مسايرة الجماعة مع شيء من التحرر عن الجماعة المحافظة على الرغبات الجسدية ، مع عدم المبالغة فيها ، مؤكداً أن تلك السمات تكون بمستويات مختلفة ، فالإنسان السوي ليس إنساناً كاملاً أو نموذجاً إنسانياً ثابت .

ويستدل الدكتور عامر بقول المحاسبي في تحديد سمات الإنسان السوي فقال :

"هو من إذا نظر اعتبر ، وإذا صمت تفكر ، وإذا تكلم ذكر ، وإذا قنع صبر ، وإذا أعطى شكر وإذا ابتلي استرجع ، وإذا علم رفق ، وإذا جهل عليه حلم ، وإذا علم تواضع ، وإذا سئل بذل وشفاء للقاصد ، وعون للمسترشد ، وحليف صدق ."

وكذلك يظهر الدكتور عامر أسباب عدم تكامل الشخصية الإنسانية في ستة أوجه وهي ضعف النية بعمل الآخرة انقياد البدن وراء الشهوات ، طول الأمل في قرب الأجل ، تقديم رضا المخلوقين على رضا الرب ، إتباع الشهوات وترك السنة النبوية ، جعل زلات السلف وهفواتهم حجة له . (٢)

- السمات الجبلية أو الخلقية :

(١) عامر النجار - التصوف النفسي - ص ٤٣٠

(٢) المرجع السابق - ص ١٤٣

وفي تحديد طبع النفس الإنسانية يتفق الدكتور عامر مع التستري في أن طبائع البشر - أربعة فأول الطبع : طبع البهائم ، والثاني : طبع الشياطين ، وهو اللهو ، والثالث : طبع السحرة وهو المكر والخداع ، والرابع : طبع الأبالسة ، وهو الإباء والاستكبار .

وعلى ذلك يرى الدكتور عامر أن لكل طبع من تلك الطبائع سهم للنجاة ، فالعصمة والسلامة من طبع البهائم ، والتسبيح والتقديس سهم النجاة من طبع الشياطين ، والصدق والنصيحة سهم السلامة من طبع السحرة ، والتضرع لله سهم النجاة من طبع الأبالسة .

- السمات النفسية :

وإذا تحدثنا عن ملكات النفس الإنسانية فنجد أن للنفس ثلاث قوى وهي : الأنا ، والأنا الأعلى وإلهي ، ولكل من هذه القوى وظيفة ، فوظيفة الأنا الأعلى : الدوام على الكبت والضغط ووظيفة إلهي : النزوع إلى المحرم ، والأنا حائر بين الأنا الأعلى وبين إلهي ، يعاني التوترات بسبب ضغطهما عليه .

- وكذلك لم يهمل الدكتور عامر الجانب التحليلي النفسي العلمي حيث أنه فصل لنا تركيب النفس الإنسانية من الناحية العلمية النفسية ، مؤكداً أن تركيب الإنسان من هذه الناحية غاية في التعقيد ، فنفسه مكونة من :

الإدراك : وهو يشمل الإحساس والإدراك الحسي بالتصور والتخيل والتذكر والتفكير .  
الوجدان : وهو يشمل الانفعالات والعواطف من الخوف والغضب والحزن والفرح .  
النزوع أو الإرادة : وهو توجيه النشاط نحو غرض معين من الأغراض ، أو عمل من الأعمال للإقبال عليه إن كان مريحاً ، والإدبار عنه إن كان غير مريح .

هذا هو مجمل الشعور أو العقل الظاهر الذي يعمل في حالة الوعي واليقظة ، أما اللاشعور أو العقل الباطن فهو الذي تكمن فيه رغباتنا المستترة ، ويعمل ويؤثر في العقل الظاهر على غير وعي . (١)

وفي هذا المقال الذي يحدد الدكتور عامر أهم الملامح والسمات التي تتسم بها الشخصية الصوفية ، والتي ألاحظ فيها تأثيره الشديد بالدكتور سيد مرسي حين أخذنا كلاهما في الاعتبار أهم السمات التي يحددها القرآن للشخصية النموذجية ، والتي يمكن تصنيفها باستنادها على تسعة محاور والتي تركز على العلاقة الخاصة بداخل الإنسان بينه وبين ذاته ، وبينه وبين ربه ، وكذلك تعلق على العلاقة العامة بين الإنسان وغيره من المحيطين به ، وهي :

- سمات تتعلق بالعقيدة : فالمؤمن ذو النفس السوية هو من يؤمن بالله تعالى واليوم الآخر والأنبياء والكتب السماوية واليوم الآخر .

- سمات تتعلق بالعبادة : فالمؤمن ذو النفس السوية هو من يعبد الله تعالى حق عبادته ، بأداء الفرائض التي فرضها الحق تعالى عليه ، وامثال أوامره ، واجتناب نواهيه ، وذلك كله يفعلها ابتغاء مرضات الله تعالى .

- سمات تتعلق بالعلاقات الاجتماعية : فصاحب النفس السوية النموذجية هو من يراعي الله تعالى في كلا فعل وقول وحال يصدر منه ، فيعامل الناس بالحسنى ، ويتقي الله تعالى في العلانية والخفاء .

- سمات تتعلق بالعلاقات الأسرية : فصاحب النفس السوية التي يسير على هدي العقيدة الإسلامية الصحيحة يقوم بإطاعة والديه ، والبر بهما ، والإحسان بذوي القربى ، وحسن المعاشرة بالزوجين ورعاية الأسرة والإنفاق عليها وحسن المعاملة معها .

- سمات خلقية : حيث يتسم صاحب النفس السوية بأنه يتحلّى بمكارم الأخلاق من الصبر الحلم العدل ، الأمانة ، الوفاء بالعهد ، العفة ، التواضع ، والقوة في الحق .

- سمات انفعالية وعاطفية : وهي التي تنفعل انفعالات صاحب النفس السوية بما يفكر فيه مثل الخوف من عقاب الله وعذابه ، والأمل في رحمته ، وحب الناس ، كظم الغيظ ، وعدم الحسد على الغير .

- سمات عقلية معرفية : وفيه يفكر صاحب النفس السوية في التفكير في الكون وخلق الله تعالى وطلب المعرفة والعلم ، وعدم إتباع الظن وتحري الحقيقة ، وحرية الفكر والعقيدة .

- سمات تتعلق بالحياة العملية : مثل امتثال صاحب النفس السوية الإخلاص في العمل وإتقانه .

- سمات بدنية : والتي فيها يعمل صاحب النفس السوية على الاهتمام ببدنه وقوته وصحته حتى

يستطيع القيام بكل أمر من الأوامر الإلهية التي يأمره الله تعالى به (١)

وفي هذا المقال يظهر جلياً اتفاق الدكتور عامر مع منهج ونظرية الدكتور سيد مرسى حين أكد أن للشخصية النموذجية الإسلامية سمات سلوكية تميزه عن غيره من النفوس الغير سوية و تلك السمات لها العديد من الثمرات التي ينعم بها صاحبها ، والتي تجعله سوياً ومنها :

- القدرة على التحكم في الذات : فكلما كان الفرد لديه القدرة على التفكير الرمزي والتي يمكنه من خلالها التنبؤ بالنتائج التي يمكن أن تترتب على نظره ، كان بالتالي لديه القدرة على التحكم في سلوكه عن طريق توقع النتائج التي يمكن أن تترتب عليه في المدى البعيد .

- تحمل المسؤولية وتقديرها : فالشخص السوي يستمد قدرته على الضبط والتحكم في سلوكه من تقديره الشخصي للأمور تقديراً مبنياً على موازنة النتائج وتمحيصها ، وكلما زاد الضبط الصادر من الداخل في الإنسان ، قلت الحاجة إلى الضبط من مصادر خارجية .

- التعاون : إن من السمات الطبيعية لصاحب الشخصية السوية أن يكون صاحبها لديه القدرة على الاعتماد عليه ، وأن يكون كفاً لكي يحقق هذه الطبيعة الاجتماعية .

- الإنسانية : فالشخص السوي هو من يكون معترفاً في ذاته ومدين بداخلها للإنسانية في وجوده بمختلف مستوياته ، وأن يكون خادماً للإنسانية جمعاء .

- الديمقراطية : إن الشخص السوي هو الذي يميل للإنسانية جمعاء ، كذلك فإن الشخص السوي هو من يتحلّى بالديمقراطية ، وهي التي تعني العناية والاهتمام بالآخرين ، والاتفاق

(١) سيد عبد الحميد مرسى - ونفس وما سواها - مكتبة وهبة - ط ١ - القاهرة - ١٩٩٢م - ص ١٦٥

على القيم الجمعية الإنسانية التي بها يمكن اتفاق الكل عليها ، حتى وإن اختلفت التفسيرات فيها . (١)

ويمكن القول أن كل من السمات التي ذكرها كل من الدكتور عامر والدكتور سيد مرسى ما هي إلا انعكاس وامتداد لمنهجية المدرسة الشاذلية المحمدية ، والتي لخص فيها الإمام الراحل أهم تلك السمات والتي تتضمن الإيمان بالله تعالى وحسن معاملة الآخرين وإمكانية الإمام بالخلافات الفرعية ، واحترام الآخر . (٢)

وفي تلك السمات أرى أنه لا بد وأن يتحفظ الإنسان على ما يمكن أن يكمن في باطنه والجانب اللاإرادي أو اللاوعي عنده ، وهذا التحفظ يتوقف على مدى يقظة الإنسان لما تورده نفسه عليه من واردات ، هذا من خلال التمسك بالكتاب والسنة ، والسير على نهج التصوف الإسلامي ، الذي يضمن سلامة النفس من العلل والأمراض .

#### أهم نتائج وتوصيات البحث

بعد هذا العرض الموجز لتلك الدراسة في هذا البحث البسيط فإنني أستخلص من تلك الدراسة التي استفاد فيها الدكتور عامر النجار بعض النتائج التي تلخصه وتوجزه وهي :  
تأكيد الدكتور عامر النجار على إخفاق المنهج العلمي وغيره من المناهج التي تستند إلى العقل والتي تقيد ذاتها بالمادة ، مؤكداً أيضاً أنه لا منهج أبدع ولا أحكم من المنهج الصوفي النفسي- لفهم التجربة الصوفية ، وما فيها من تجليات وواردات ، هذا لما يتسم به من الذوق والوجد ، وتلك السمات ما هي إلا مقاليد تفتح وتروض به النفس الإنسانية .

أن الدكتور عامر النجار قد وضع منهجاً للتربية النفسية الروحية ، أخذ في الاعتبار تقسيم هذا المنهج لقسمين : قسم نفسي ، روحاني ، وفيه بيان لأهم الأمراض التي تصيب النفس وأهم طرق العلاج منها ، والقسم الآخر : قسم أخلاقي يبين أهم الأخلاق التي دعا إليها القرآن وتمثلت في حضرة الكمال النبوي للنبي محمد عليه السلام مؤكداً أن هذا المنهج الذي

(١) سيد مرسى - ونفس وما سواها - ط ١ - ص ١٧٧ ، ١٧٨

(٢) محمد زكي إبراهيم - الخطاب - مرجع سابق - ص ٢٤ وكذلك الدليل إلى الطريقة المحمدية - ص ١٣٢



انتهجه لا يخرج عن كونه يعبر عن العقيدة والشرعية الإسلامية ، التي أملت بالإنسان بشتى جوانبه الروحانية ، والعقلية والمادية .

كما أكد أن الدكتور عامر قد تأثر بأئمة التصوف النفسي- تأثراً شديداً ومنهم المحاسبي والترمذي والتستري - حين لاحظت حرصه على أن تكون تلك التربية النفسية والروحية لابد وأن تكون دراسة وتربية فعالة في حياة الإنسان في ذاته أولاً ، ثم في حياة المجتمع ككل ، وإلا فلا حاجة لنا بمثل هذه الفلسفات الفارغة من المضمون الايجابي والفعال للفرد ، وهذه الايجابية لن تتحقق إلا بالتحلي بمكارم الأخلاق القرآنية ، والسنن النبوية وهذا هو الإيمان . وكذلك حرص الدكتور عامر على ربط ذلك المنهج الصوفي النفسي- بالعقيدة الإسلامية الصحيحة ، والإيمان الموثق من الكتاب والسنة النبوية ، مشيراً إلى أن هذا المنهج الإسلامي الصوفي النفسي بمثابة الدليل المرشد في هداية النفس ، ووقايتها ، بل وعلاجها من الأمراض والعلل التي قد تصيب النفس الإنسانية .

يمكنني أن أطلق على هذه الدراسة التحليلية للنفس الإنسانية للدكتور عامر وصف يجعلها تتصف بالشمولية والكلية التي يحتوي جميع الأجناس وهو " الفلسفة التكاملية " فتلك الفلسفة التي تؤمن بالمادية والروحية على حد سواء ، ومن ثم تهتم بالجانب المادي الجسدي والروحاني دون وضع أي فواصل ؛ لأن هدفها تكوين نموذج إنساني متكامل من الناحية المادية والروحية والأخلاقية ، وتلك هي البراعة الفكرية التي يمكن تحقيقها على البعد الواقعي .

وأخيراً وليس آخراً يمكن قول أن الدين وعلم النفس الصوفي كيانان متكاملان ، حيث أن علم النفس الصوفي يركز على طبيعة الذات في الحياة ، وكيف يمكنها التوافق بكل أشكاله في ذاتها على كما أن الدين يركز على معنى الحياة ، والدور الحقيقي لتلك النفس الإنسانية السوية في تلك الحياة ، وعلى ذلك فلا بد من الاعتراف أن أي علم ، حتى علم النفس الصوفي لابد من استناده إلى العقيدة الصحيحة التي بها يصصح مسار النفس فيما يجب أن تكون عليه

وأختم ذلك البحث المصغر بوصيتي لكل من يهمله هذا العلم النفسي الصوفي ، بأن ينظر فيه نظرة تحييص ، وإعطاءه حقه من الاهتمام حتى يبلغ مقامه الحقيقي ، وخاصة مؤلفات الدكتور عامر النجار ، ومنهجه النفسي الصوفي وأثره على الأفراد والمجتمعات ، وهذا في نظري لن يكون إلا من خلال جمع تلك المؤلفات والكتب التي تهتم بهذا العلم ، وتحويلها إلى منهج يمكن الاستفادة منه في جميع المستويات الاجتماعية ، والتي يمكن تدريسها في جميع مستويات التعليم ، حتى تكون كاللبذور التي تزرع ، والتي يمكن جنيها في وقتها اللازم ، وهو وقت ظهور وانتشار الأمراض النفسية والخلقية ، وهذا هو البعد الواقعي لهذا العلم ، الذي به يمكننا أن نتخلص من أهم أمراض هذا العصر الذي نحيا فيه ، فهو بمثابة منهج رباني ، وأداة إلية للتخلص من أمراض النفوس ، إذا التزم بها الإنسان كعلاج روحي له .

## أهم المصادر والمراجع في البحث

أولاً: أهم المصادر :

٤ - النجار (عامر) - التصوف النفسي - الهيئة العامة المصرية للكتاب - القاهرة - ٢٠٠٢م

٥ - النجار (عامر) - الطرق الصوفية في مصر - الهيئة العامة المصرية للكتاب - القاهرة - ٢٠٠٤م .

ثانياً: أهم المراجع :

١ - الجرجاني (محمد بن علي السيد الزين) - التعريفات - مطبعة مصطفى الحلبي - القاهرة ١٩٣٨م

٢ - الشرقاوي (حسن) - من حكماء الأمة - دار المعرفة الجامعية - الإسكندرية - القاهرة - ١٩٩٠

٣ - الشرقاوي (حسن) - الطب النفسي النبوي - دار المطبوعات الجديدة - القاهرة - ١٩٨٣م

٤ - حلمي (مصطفى) - قواعد المنهج السلفي في الإسلام

٤ - عبد الحميد (سيد مرسي) - الشخصية السوية - سلسلة دراسات نفسية إسلامية - العدد ٤ - مكتبة وهبة -

ط ١ - القاهرة - ١٩٨٥

٦ - عبد الحميد (سيد مرسي) - ونفس وما سواها - سلسلة دراسات نفسية إسلامية - العدد ٨ - مكتبة وهبة

ط ١ - القاهرة - ١٩٩٢م

٧ - عبد الحميد (سيد مرسي) - الإيمان والصحة النفسية - سلسلة دراسات نفسية إسلامية - العدد - مكتبة

وهبة - ط ١ - القاهرة - ١٩٩٤م

٨ - فضل (صلاح) - مناهج النقد المعاصر - دار الآفاق العربية - ط ١ - القاهرة - ١٩٩٧م

٩ - درويش (عبد الحميد) - ابن باديس وآراؤه الفلسفية - مطبعة جامعة القاهرة - ج ١ - القاهرة - ١٩٩٥م

١٠ - زكي إبراهيم (محمد) - أبجدية التصوف الإسلامي - مطبوعات العشيرة المحمدية - ط ٥ - القاهرة -

٢٠٠٥م

١١ - زكي إبراهيم (محمد) - أصول الوصول - مطبوعات العشيرة المحمدية - الطبعة الخامسة القاهرة -

٢٠٠٤

١٢ - زكي إبراهيم (محمد) - الخطاب - مطبوعات العشيرة المحمدية - ط ٧ - القاهرة - ٢٠٠٩م ١٣ - زكي

إبراهيم (محمد) - كلمة الرائد - مطبوعات العشيرة المحمدية - ج ١ - ط ١ - القاهرة - ١٤٢٤هـ